القضية الفلسطينية في فكر إدورد سعيد

محمد كمال(*)

مقدمة:

في حوار لإدوارد سعيد مع القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية ، أجاب سؤال محاوره المتمكن عن المصداقية التى نالها فى الدوائر الغربية قال : كنت أتقن تاريخنا... أعرف ماذا حدث بالضبط.... ابن القضية وتعلمت ".... "لاريكفي أن تكون ابن القضية بل يجب أن تكون تلميذها"[1]، وقد كان ابنا بارًا للقضية الفلسطينية وتلميذًا نجيبًا لها فصار صوتها القوى، وضميرها النقدي، وسفيرها المعتمد على مستوى الفكر العالمي.

تمثل القضية الفلسطينة الشغل الشاغل لإدوار سعيد–المولود في القدس وللمفارقة علي يد قابلة يهودية أستئمنتها الأسر المسيحية والمسلمة على نسائها الحوامل وما يلدنه– ومع ذلك لم تلق الاهتمام الكافي من دارسي فكر إدوارد سعيد الغربيين لأسباب مفهومة. وقد يفاجأ البعض أن أول أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، هي دراسة لسعيد بعنوان " القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي" صدرت عام ١٩٨٠ذهب فيه مبكرًا إلى أن ساحة كفاح القضية الفلسطينية في أمريكا هى المجتمع المدني لا المجتمع السياسي وهو ما أثبتت الأيام صحته ودقته، كما عمل باحثًا زائرا فى مؤسسة الدراسات الفلسطينية لشهرين في بيروت عام ١٩٧٩.

إن سيرة ومسيرة إداورد سعيد مضفورة بالقضية الفلسطينية، ومهما اختلفنا في الأسس المعرفية والوجودية لرؤية سعيد لهذه القضية والحلول التى طرحها لها، ومهما اتفقنا مع معظم مواقفه السياسية وتقديرنا لها في تعاملها مع القيادات الفلسطسنية التى رأي أنها فرطت فى فلسطين، فإن الأمر الذي نخرج به من سيرته هو أنه أسهم بقوة وذكاء وبلاغة في صياغة عميقة وتأسيس نظري متماسك الأركان لبديهية يتناساها كثيرون من اليسار واليمين، وهى أن الصراعات الكبري والنزاعات الممتدة تعود جذورها وأصولها إلى الفكر والثقافة. نعم ، "الأصول" مع معرفتنا أن سعيد يميّز –ويفضل– البداية عن الأصل: الأولى علمانية ومُنتَجة على نحو إنساني مستديم خاضع للفحص والتدقيق، والثاني مقدّس وأسطوري وثابت بحسب مايري.

يتناول هذا التقرير مكانة إدورد سعيد في التعريف بالقضية الفلسطينة وخدمتها، ومسيرة حياته وموقفه الكلى منها، وما تميز به من كون مثقف مسئول متسق بين فكره وفعله؛ مقاله وحاله، مع رصد لأهم ملامح فكره بخصوص القضية الفلسطينية وهى: النقد الذاتى، والمشترك الإنساني، مأزق ضحية الضحية، ومعضلة الديجغرافيا والديموجرافيا، ويختتم بالتقرير بعرض ماذا يبقى من إدورد سعيد فكره، وسيرته للأجيال القادمة.

أولًا– مكانة إدورد سعيد في التعريف بالقضية الفلسطينة وخدمتها:

اعتبره الشاعر الفلسطيني محمود درويش "ضميرنا وسفيرنا إلى الوعي الإنساني" ويؤكد " لو سُئل الفلسطيني عمّا يتباهى به أمام العالم، لأجاب على الفور: إدوارد سعيد، فلم ينجب التاريخ الثقافي الفلسطيني عبقرية تضاهي إدوارد المتعدّد المتفرّد. ومن الآن (أي وفاته) وحتى إشعار آخر بعيد، سيكون له الدور الريادىّ الأول في نقل اسم بلاده الأصلية" من

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) الحوار متاح على الرابط : https://goo.gl/G٦٢nt٣

المستوى السياسي الدارج إلى: الوعي الثقافي العالمي. لقد أنجَبتهُ فلسطين. ولكنه – بوفائه لقيم العدالة المهدورة على أرضها، وبدفاعه عن حق أبنائها في الحياة والحرية – أصبح أحد الآباء الرمزيين لفلسطين الجديدة. إن منظوره إلى الصراع الدائر فيها هو منظور ثقافي وأخلاقي لا يبرر فقط حق الفلسطينيين في مقاومة الاحتلال، بل يرى إليه باعتباره واجباً وطنياً وإنسانياً أيضاً".

ويقول عنه جلال أمين "لا أعرف رجلاً أو امرأة كسب لقضية الفلسطينيين عطف المثقفين في مختلف أنحاء العالم الذين يتكلمون ويقرأون بمختلف اللغات، أكثر مما كسبه إدوارد سعيد لهذه القضية."

ويري آخر أن إدوارد سعيد أعطي في مساره "درساً نموذجياً في "الهُجنة الخصيبة". فقد كان أميركياً يدافع عن القضية الفلسطينية، وكان فلسطينياً يندد بالسياسة الصهيونية، وكان ذلك الفلسطيني الأميركي الذي ينقد "المؤسسة العرفاتية" (إشارة إلى ياسر عرفات) ويرى فيها شراً وبيلاً يهدد الحق الفلسطيني"

احتفظ سعيد بموقف منهجي معرفي مسئول من القضية الفلسطينية مؤكدًا على الوظيفة السياسية للثقافة "إدوارد سعيد من قلة استعادت، بإصرار وبوعي عميق، واجتراح، وتجذر، الوظيفة السياسية للثقافة والإبداع والكتابة، من دون أن يقع، حتى في أكثر المراحل سخونة وانفعالاً وعاطفية وذاتية، لا في المباشرة، ولا في التبسيط، ولا في الخطاب التعبوي الآني، أو الدوغمائية المغلقة أو الدعائية الضيقة. كان لنضاله أفق. بل كانت كل الآفاق المشرّعة على المعاصرة في خدمة نضاله: من الفكر الذي رفض أن يكون مرتبطاً بما يسمّى "ما بعد الحداثة" بمضونه العدمي أو التدميري، أو المفرّغ من القيم والحقائق الكبرى، الى السياسة التي جعل إلتزامه فيها إلتزاماً بالقضية الفلسطينية وبكل القضايا العالمية، والشعوب الخاضعة للكولونيالية، ومطامحها وآلياتها المتوحشة وجنونها"[1].

ثانيًا– حياته وموقفه الكلي من فلسطين:

ولد إدوارد سعيد في الأول من نوفمبر ١٩٣٥ في القدس من والدة بروتستانتية تنتمي إلى عائلة ميسورة وتاجر فلسطيني مسيحي ثري حصل على الجنسية الامريكية. وقد توفي الكاتب الكبير يوم الخميس الخامس والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٣ بعد صراع طويل مع مرض سرطان الدم – لوكيميا– الذي أصابه لمدة عشر سنوات وأوهن جسمه لكنه لم يوهن عقله وإرادته وظل حتى وفاته يكتب ويقاوم كعادته التي عُرف بها كاتبا يتقدم الصفوف الأولى.

وصل إلى القاهرة مع أسرته في العام ١٩٤٧ ثم توجه في سن السابعة عشرة إلى الولايات المتحدة ليتابع تحصيله العلمي. وتخرج أولًا في جامعة برينستون، ثم حصل على شهادة دكتوراه في الأدب المقارن من جامعة هارفرد، وفي ١٩٦٣ بدأ التدريس في جامعة كولومبيا في نيويورك.

بعد هزيمة العرب في يونيو ١٩٦٧ انصرف إلى العمل على شرح قضية شعبه في الولايات المتحدة. وقد خاض مرات عدة مواجهات مع القيادة الفلسطينية .وأصبح إدوارد سعيد عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني في ١٩٧٧ وحاول عبثا اقناع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بأهمية الجاليات الفلسطينية المنتشرة في أنحاء العالم.

وصدر أبرز كتبه "الاستشراق" في العام ١٩٧٨، وقد ترجم الى ٢٦ لغة، واعتبارا من ١٩٧٩ بدأ ينتقد أسلوب منظمة التحرير والدول العربية في التعامل مع القضية الفلسطينية، وظهر ذلك جليا في كتابه "مسألة فلسطين"، وقد

---

(١) هذه الشهادت متاحة على الرابط التالي:
https://goo.gl/nyNnQF

صدر له العديد من الكتب التي تناولت النزاع في الشرق الاوسط.

في ١٩٩١ استقال من المجلس الوطني الفلسطيني بسبب معارضته الشديدة لياسر عرفات وانتقاده له بسبب سعيه التقرب من "اسرائيل"؛ إلا انه واصل النضال. وبدأ يطالب منذ العام ١٩٩٤ باستقالة عرفات الذي وصفه ب "بيتان الاسرائيليين" (نسبة الى المارشال هنري بيتان الفرنسي الذي تعاون مع الألمان خلال الحرب العالمية الثانية). واعتبر سعيد أن عرفات وافق، من خلال اتفاقات أوسلو "١٩٩٣"، على التبرؤ من التاريخ الفلسطيني. وقد وصف اتفاقات أوسلو بين "اسرائيل" والفلسطينيين بأنها "أداة استسلام العرب" في وجه الدولة العبرية والولايات المتحدة. وبعد أن استقال إدورد سعيد من المجلس الوطنى الفلسطيني عام ١٩١٩ ، اشتدت مناهضته لما يسمى عملية السلام ، وظل يمثل أحد الأصوات الهامة للمقاومة وسط جو يملؤه اليأس[١].

ثالثًا– المثقف المسئول المتسق:

مسئولية المثقف لدى إدورد سعيد تتمثل في: مواجهة الكاذبين الأقوياء بالحقيقة وعرض أكاذيبهم للتمحيص العام، وهي مسئولية تستوجب ثمنًا غاليًا وقد تعرض حياته للخطر، وقد دفع سعيد الثمن ،وهو الرجل الذي سماه الصهاينة في مجلتهم النيويوركية Commentary في أغسطس "١٩٨٩ أستاذ الارهاب" وهدد الصهاينة المتطرفون عائلته في فلسطين، ووضعته الرابطة الصهيونية على لائحة كبار المروجين للتأييد العربي في صفوف الطلاب والأساتذة الجامعيين في الولايات المتحدة الأميركية، في بعض الأحيان كانت حياته عرضة للتهديد من مجموعات عنيفة، وكانت تلك التهديدات جدية إلى حد أن «إف. بي. آي» كانت تحذّره بأن عليه أن يكون متنبهاً[٢].

العلمانية لدى إدورد سعيد —وهو يصف نفسه بأنه علماني متشدد – في عمله الأخير الذى نشر بعد وفاته بعنوان " عن الأسلوب المتأخر"[٣] هي الحل للمسألة الفلسطينية على المستوى المعرفي والوجودي والفكرى والمستوى السياسي، فعلى المستوى المعرفي والوجودي يكتب تعليقًا على تمييز الفيلسوف الإيطالي فيكو بين الأممي واليهودي" أن تكون أمميًا غير يهودي يعنى أن تخرج من الزمن المقدس والسرديات المقدسة، " وأن تعيش بشكل دائم في التاريخ وبنظام غير نظام الله"[٤]، وعلي المستوي فإن الدولة الفلسطينة العلمانية الديمقراطية هى الحل للقضية الفلسطينية.

طالب سعيد دوماً بنزعة أنسنية ما بعد أوربية عابرة للقارات، نزعة أنسنية تؤمن بالفعل الإنساني وتدين الإقصاء مع انفتاح شامل على منابع المعرفة الانسانية.... مفكر مرتحل بين عوالم المعرفة، مثقف يقاوم من داخل الحقل الأكاديمي الغربي بفكر نقدي وثوري لتكسير صنمية الآراء المسبقة[٥].

يري وليام هارت أن الدين يجعل مشروع سعيد أكثر قابلية للفهم والإدراك خصوصًا إشاراته المبعثرة – لكن المستمرة– إبي الدين، وهذا يسلط الضوء على معاني العلمانية وتعقيداتها الجمة، التى لم يعمل سعيد على تفسيرها البته،[٦]

---

(١) المصدر السابق

(٢) إدوارد سعيد.. مفكر عبر الحدود لتفسير العالم، متاح علي الرابط التالى: https://goo.gl/fxz٤wS

(٣) إدورد سعيد، عن الأسلوب المتأخر: موسيقى وأدب عكس التيار، ترجمة فواز طرابلسي،دار الآداب بيروت،٢٠١٥، ص٣٤

(٤) Edward W.Said, Beginnings: Intention and Method, Basic books, New York,١٩٧٥,pp٣٤٩-٣٥٠

(٥) https://goo.gl/MdQ٢qP

(٦) وليام د.هارت، "إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية للثقافة".، ترجمة د. قصي أنور الذبيان ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) (كلمة)،٢٠١١

فالدين كما يرى هارت "يعود أحيانًا وفي الأماكن غير المتوقعة بتاتًا[١] ومن ضمنها مشروع إدورد سعيد الفكري.

ويواصل وليام هارت عرض وجهة نظر مفادها إمكانية التعايش بين العلمانية والتدين قائلًا: يمكن للمرء أن يكون متدينًا كليًا وعلمانيًا، أو علمانيًا كليًا ومتدينًا، وتعنى العلمانية عدم الاعتراف السياسي بالكنائس وغيرها من المؤسسات الدينية والتقاليد، وتشير في بعض الأحيان إلى نقد المعتقدات الدينية التقليدية مثل الرواية الإنجليية لمعركة أريحا التى ووقفت الشمس ثابتة خلالها [٢].

رابعًا– ملامح فكر إدورد سعيد في القضية الفلسطينية:

من أهم محدات فكر غدورد سعيد فى النظر للقضية الفلسطينية النقد الذاتي لمشترك الإنساني، مأزق ضحية الضحية، معضلة الجغرافيا والديموجرافيا.

١– النقد الذاتي :

كعادة المثقف المسئول يناضل على أكثر من جبهة ضد العدو الخارجي، وأعوانه من المستبدين والفاسدين "كان سعيد من أقوى المناهضين للخطاب الصهيوني الأمريكى، لكنه كان مع ذلك من أشد دعاة النقد الفلسطيني الذاتى. فلم يتردد عن الجهر بمطاوى الخلل المتفشى فى السلطة الفلسطينية، القائمة على السلطوية والقمع والفساد، وكان من أبرز منتقدى دكتاتورية الرئيس ياسر عرفات، ومقولة "ليس ثمة بديل آخر له"، و"جوقة المنتفعين المتحلقين من حوله"، التى وجد فيها بعضا من "سمات المافيا" التى تستبعد ذوي الكفاءة والشرف لصالح دائرةٍ ضيقة من العملاء المُختبَرَقين من قِبل الموساد والمخابرات الأمريكية، ومن الانتهازيين المنشغلين بعقد مختلف الصفقات التجارية على حساب الشعب الفلسطيني المعذب[٣].

وقد بذل إدورد سعيد غاية جهده "فى بيان دور المثقف فى مواجهة السلطة فى أزمنة الهزائم المتلاحقة"، فهو يقول " تزداد أهمية الدور الذى يلعبه النقد والتذكير بالنواقص فى غياب نظام قانونى ودستورى متكامل، ولا يصح هذا الأمر فى حالة غزة والضفة الغربية فحسب، بل ينطبق على أى مكان فى العالم العربى، فالنقد يرفع من مستوى الوعى ويعيد ارتباط القادة بشعوبهم، كما أن نقد السلطة واجب أخلاقى، إذ أن إلتزام الصمت أو الاكتفاء باللامبالاة أو الانصياع للسلطة الباغية كلها أمور تنم عن انعدام الحس الأخلاقى، إن شيئا من النقد الذاتى كان كافيًا للوصول لدرجة من الصدق مع الذات، ولدرء كثير من الهزائم العربية التى ساقتنا إليها خطانا. بعد أوسلو وقبلها"[٤].

ومن هذه الانتقادات ما ذكره بخصوص إتفاقية أوسلو "فى أكثر من موضع، قرأتُ إن الكراسى المصفوفة فى حديقة البيت الأبيض يوم توقيع اتفاقية أوسلو كانت من ذلك النوع الذى يمكن طيه وإزاحته بعد انقضاء المناسبة، لكن المؤسف هو ما تبدى عبر كل تلك الأعوام المنصرمة، من أن الاتفاقية بأسرها كانت هى أيضًا من ذلك النوع الذى يسهل طيُه كطى السجل ليُقذف فى سلة المهملات، فلقد ذهب الذاهبون إلى أوسلو وهم يعلمون أنها لا تمثل معاهدة سلام، بل محض إطار لبيان ترتيبات سلطة عاجزة مؤقتة، وقناةٍ لتسهيل مفاوضات صورية كاذبة، ذهب الذاهبون وهم يعلمون أن الأمر لا يعدو أكثر من تمثيلية، وألا حديثَ سيكون عن أى من المشكلات الصعبة: القدس والاستيطان واللاجئين والحدود، ذهبوا وهم يظنون أنهم مُنحوا هبة عظيمة

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٥

(٢) المصدر السابق ، ص٢٣٥

(٣) داليا سعودي، ضحكات نتنياهو ونبوءة إدوارد سعيد، الشروق ، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/vkYMNk

(٤) المصدر السابق

لمجرد أن إسرائيل قد اعترفت بوجودهم. ذهبوا وفى نفوسهم عقدةُ نقص، وطمعٌ فى سلطة، واستعدادٌ لفساد، وافتقار لكفاءة، وبوادر انقسام، فبدوا أضعف شأنا من حمل لواء قضيتهم العادلة وباءوا بما باءوا به اليوم، واستحقوا ضحكات رئيس وزراء الكيان الصهيوني"[١].

ويؤكد سعيد على أهمية الإردة الفكرية قبل السياسية فى المقاومة والتحرير إذ يقول "الخطوة الأولى لتحرير الأراضى المحتلة هى أن نقرر فكريا أنها ستُحرر، فالوصول للهدف يتطلب تعبئة حقيقية واستعدادًا حقيقيًا. فى حين أن السير على الطريق الحالى بقيادة الأشخاص الحاليين لن يؤدى سوى إلى المزيد مما نجده الآن، أى الأوهام والخسارة والفساد".

٢- المشترك الإنساني

ويركز إدورد سعيد في تناوله وعرضه للقضية الفلسطينة على المشترك الإنساني ويحيل إلى مرجعية حقوق الإنسان، وهو يقول "بعد ١٩٦٧، أدى احتلال الضفة الغربية وغزة إلى نشوء نظام عسكري ومدني للفلسطينيين كان هدفه اخضاع الفلسطينيين وتحقيق الهيمنة الإسرائيلية، أي بمثابة امتداد للنموذج الذي قامت عليه إسرائيل، وأنشئت مستوطنات في أواخر صيف ١٩٦٧ (وجرى ضم القدس)، ولم تقم بذلك أحزاب يمينية بل حزب العمل الذي كان عضواً في الدولية الاشتراكية، ولم يكن تشريع المئات من «قوانين المحتلين» يخالف بشكل مباشر أسس الأعلان العالمي لحقوق الانسان فحسب بل مواثيق جنيف أيضاً، وتعددت هذه الانتهاكات لتمتد من الاعتقال الإداري إلى المصادرات الجماعية للأراضي وهدم المنازل والاجلاء القسري للسكان والتعذيب واقتلاع الأشجار والاغتيال وحظر الكتب وإغلاق المدارس والجامعات، لكن توسيع المستوطنات اللاشرعية استمر دائماً فيما شملت سياسة التطهير العرقي المزيد من أراضي العرب كي يمكن توطين اليهود القادمين من روسيا وأثيوبيا وكندا والولايات المتحدة وغيرها من البلدان ، بعد توقيع اتفاقات أوسلو في أيلول ١٩٩٣، شهدت أوضاع الفلسطينيين تدهوراً مستمراً، وأصبح من المستحيل بالنسبة إلى الفلسطينيين أن يتنقلوا بحرية بين مكان وآخر، وحُظر عليهم الوصول إلى القدس، وأدت مشاريع بناء ضخمة إلى تغيير جغرافيا البلد، وفي كل شيء جرى الحرص بدقة على التمييز"[٢].

٣- ضحية الضحية

ويبرز سعيد ما يراه معضلة أخلاقية في القضية الفلسطينية، فالفلسيطنيين هم ضحية الضحية، باعتبار أن اليهود ضحايا الغرب المسيحي إذ يقول : "لا جدال أن المأزق الأخلاقي الذي يواجهه كل من يحاول أن يتناول النزاع الفلسطيني /الإسرائيلي هو مأزق عميق، فاليهود الإسرائيليون ليسوا مستوطنين بيضاً من الصنف الذي استعمر الجزائر أو جنوب افريقيا، على رغم من أن وسائل مماثلة استُخدمت، ويُنظر إليهم بحق كضحايا تاريخ طويل من الاضطهاد الغربي المسيحي المناهض للسامية بشكل أساسي، وقد توِّج بفظاعات المحرقة النازية التي تكاد تتجاوز حدود التصديق؛ لكن بالنسبة إلى الفلسطينيين فإن دورهم هو دور ضحايا الضحايا، ويفسر هذا لماذا ينأى الليبراليون الغربيون بأنفسهم، وهم الذين أيَّدوا علناً حركة مناهضة نظام التمييز العنصري، أو الحركة الساندينية في نيكاراغوا، أو البوسنة، أو تيمور الشرقية، أو الحقوق المدنية في أميركا، أو إحياء الأرمن لذكرى الإبادة التي نفذها الأتراك أو قضايا سياسية أخرى كثيرة من هذا النوع، عن التأييد العلني لحق تقرير المصير للفلسطينيين. أما بالنسبة إلى السياسة النووية لإسرائيل، أو حملة التعذيب المشرَّعة قانونياً، أو استخدامها للمدنيين كرهائن، أو رفضها إعطاء الفلسطينيين أذونات للبناء على أراضيهم في الضفة الغربية، فإن القضية لم تُطرح إطلاقاً في المجال العلني الليبرالي،

(١) مقتبس في المصدر السابق نقلا عن إدورد سعيد

(٢) إدورد سعيد، أوسلو وما بعدها ، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/٣PiqME

ويرجع السبب في جانب منه إلى الخوف، وفي جانب آخر إلى الشعور بالذنب[1].

٤- معضلة الجغرافيا والديموجرافيا:

ويلفت النظر إلى صعوبة عملية تفرضها الجغرافيا والديموجرافيا على القضية الفلسطينية فيقول" ثمة تحد أكبر من السابق نفسه، ويتمثل في صعوبة الفصل ما بين المجموعتين السكانيتين الفلسطينية والإسرائيلية، وهما الآن متداخلتان من نواح تفوق الحصر، على رغم الهوة الكبيرة بينهما، ويدرك الكثيرون منا، الذين نادوا سنين طويلة بإقامة الدولة الفلسطينية، أن «دولة» كهذه (المزدوجان هنا في مكانهما الصحيح!) إذا قُدّر لها ان تولد من كارثة أوسلو، ستكون ضعيفة ومعتمدة اقتصادياً على إسرائيل ومفتقرة تماماً إلى أي قوة أو سيادة. فوق كل ذلك فإن خريطة الضفة الغربية حالياً تبين أن مناطق الحكم الذاتي منفصلة بعضها عن بعض (مساحتها الآن لا تتجاوز ثلاثة في المئة من مساحة الضفة الغربية، فيما تواصل حكومة نتنياهو رفض إعطائها ١٣ في المئة إضافية) وهي بذلك ستكون بمثابة بانتوستانات تسيطر عليها إسرائيل من الخارج؛ الحل المعقول الوحيد، إذن، هو أن يجدد الفلسطينيون ومساندوهم الصراع ضد المبادئ الإسرائيلية الأساسية التي تضع غير اليهود موضع الهوان في أرض فلسطين التاريخية، يبدو لي أن هذا هو المطلب المنطقي لأي حملة لتحقيق العدالة للفلسطينيين، بدل المطالبة بالانفصال بين الطرفين، كما تفعل بين حين وآخر، وبتردد وضعف، حركة «السلام الآن» الإسرائيلية، ليس هناك مبدأ لحقوق الإنسان، مهما كان مطّاطّاً، يمكن أن يتوافق مع التمييز الذي تمارسه إسرائيل ضد غير اليهود، أي ضد الفلسطينيين بالدرجة الأولى، وليس من أمل في مصالحة على أرض فلسطين، إسرائيل ما لم تتم مواجهة التناقض بين عقيدة إسرائيل الانعزالية على الصعيدين الديني والإثني من جهة، ومتطلبات الديموقراطية الحقيقية من الجهة الثانية. أما التهرُّب من هذه القضية أو تغطيتها كلامياً أو اللجوء إلى تعريفات غائمة لـ«السلام» فلن تجلب للفلسطينيين، وللإسرائيليين على المدى الطويل، سوى المعاناة والقلق[2].

خاتمة: ماذا بقي من إدوارد سعيد؟

بقى النضال والمثال والنموذج بالإضافة إلى الناتج العلمى الذى نافح فيه وبه دوائر الصهيونية الإعلامية والأكاديمية فى الولايات المتحدة وأوروبا وغيرها حيث ترجمت أعماله هذه بالإضافة لباقى أعماله التأسيسة كالاستشراق والثقافة والإمبريالية إلى عشرات اللغات.

ومن كتبه التى تناولت بشكل مباشر القضية الفلسطينية : مسألة فلسطين (١٩٧٩)، ما بعد السماء الأخيرة: حياة الفلسطينيون(١٩٨٦)، سياسة التجريد:كفاح شعب فلسطي لتقرير المصير ١٩٦٩-١٩٩٤(١٩٩٤)، السلام والسخط عليه: مقالات عن فلسطين وعملية السلام في الشرق الأوسط (١٩٩٥)، نهاية عملية السلام: أوسلو ومابعدها (٢٠٠٠) ، تأملات من المنفى ومقالات أخرى (٢٠٠٠)، من أوسلو إلى العراق وخريطة الطريق (٢٠٠٤).

إن نضال إدورد سعيد فكرًا وبحثا ودراسة وفكرًا ومواقف سياسية من أجل القضية الفلسطينية هى دفاع عن الذات والهوية، ولعل رثاء الشاعر الفلسطينى محمود درويش لإدورد سعيد وكانا صديقين يكشف عن هذا المعني ، يقول درويش:

والهويَّةُ؟ قُلْتُ
فقال: دفاعٌ عن الذات...
إنَّ الهوية بنتُ الولادة لكنها
في النهاية إبداعُ صاحبها
لاوراثة ماضٍ.

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

أنا المتعدِّدَ... في
داخلي خارجي المتجدِّدُ
لكنني
أنتمي لسؤال الضحية.

وصفوة القول أننا بحاجة إلى تمثل نضال سعيد، وقد نقول "جهاده" المدنى، من أجل القضية الفلسطينة وما بث في مواقفه العملية وخلفيته المعرفية من اتساق فكري وأصالة وعمق مع الاستعداد لدفع الثمن من حياته وصحته، أن ما يحتاجه كل المدافعين والمناضلين والمجاهدين من أجل القضية الفلسطينية وهو نفس ما أعجب به إدورد سعيد من كلمات لقسطنطين رزيق، وهو حاجتنا جميعًا إلى "معرفة شاملة قوية ممزوجة بإيمان متقد "[1]؛ أي أن نكون أبناء قضايانا وتلاميذها كما ذكر سعيد في حواره الذى أُشير إليه فى بداية التقرير.

*****

(١) إدورد سعيد، القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي، سلسلة مؤسسة الدراسات الفلسطسنية رقم١، مؤسسة الدراسات الفلسطينة، بيروت ١٩٨٠، ص٣٢